المحاضرة الأولى: ارهاصات النقد العربي المعاصر

1. النظرية النقدية الحديثة:

قبل أن يتساءل القارئ، عن مفهوم النظرية النقدية عند العرب، يجمل بنا أن نقدم له أبعاد هذا المفهوم إنّ النظرية ببساطة، تعبير عن دلالة فلسفية تحتمل المناقشة والتحليل، أو التعبير عن حركة فكرية نشأت مع تطوّر الفكر التحليلي عند اليونانيين القدماء، والنقد الأدبي لم يكن بعيدا عن اصطناع هذه النظريات العلمية وتمثلها والإفادة منها.

إنّ المتتبع لسيرورة التحولات التي شهدها الدرس النقدي العربي في العقود الأخيرة، يلحظ أن النظريات النقدية تتصف بالشمول والتعميم، وتنتسب على عصرها التكويني، وهذه النظريات بصفة عامة مدينة لتاريخ التطور النقدي والفلسفي العالمي عبر العصور بدءا من المحاكاة التي نادى بها أفلاطون وطالعنا "أرسطو بشرح هذه النظرية في كتابه " فن الشعر" – وكما نعلم- ان صلة الشعر بالفنون وبين أرسطو والعرب، وقد أثرت نظرية المحاكاة كما شرحها أرسطو تأثيرا عميقا في النقد العالمي منذ عصره[i]

ومرورا بما أسهم به النقد العربي القديم، وانطلاقا إلى النقد الرومانسي الذي تمثل في نظرية الخيال لدى الناقد الإنجليزي كولردج، والنظرية النقدية عند الإيطالي كروتشه. ويؤكد صلاح فضل أن "المنهج النقدي هو الذي يختبر توافق هذه النظرية مع مبادئها، ويمارس فعاليته، ويتم تداوله عبر جهاز اصطلاحي يحمل قنوات تصوراته ويضمن كيفية انطباقها -قربا أو بعدا- مع الواقع الإبداعي"[2]

وفي هذا السياق لا يمكن اغفال المنظومة الاصطلاحية التي تمثل الطرف الثالث في العملية المنهجية، (النظرية والمنهج والمنظومة الاصطلاحية) والأخيرة تمثل الأدوات المنهجية التي يطبق بها المنهج[3].

2. الترجمة أو التعريب:

استفاد النقد العربي المعاصر من الفكر النقدي الغربي بطريقتين: الترجمة والتأليف وقد تجلت المؤثرات النقدية باستخدام النقد العربي المعاصر المصطلح النقدي الغربي، أو المعرب، وبهذا الشكل يظهر دور الترجمة في نقل المعرفة لمحاولة اللحاق بالركب ومسايرة التطور المذهل الذي عرفه الغرب في جميع العلوم لا سيما الأدب والنقد، إلا أنه ببروز اشكال أخرى متعلقة بالمصطلح النقدي، ظهرت في نصوص النقد والدراسات الأدبية مصطلحات غربية جديدة، أخذت بمرور الزمن تتراكم حتى أصبحت ظاهرة استخدام المصطلحات الحديثة في النصوص، او في الأوساط الأدبية دون العناية بالبحث عن مضمونها في الاطار الذي نشأت فيه او الذي تم النقل إليه، وتمثل هذه المرحلة -عصر النهضة- نقلة نوعية في مسار النقد المعاصر. وإذا ما انتقلنا إلى ميدان التأليف فقد برع النقاد العرب في التأليف في جهود أعلام النقد الأدبي، تأليفا يدل على الاطلاع على مؤلفاتهم والتأثر بها.

ولعلّ السؤال الذي يطرح على المشتغلين بالنقد الأدبي العربي الحديث: هل هناك نظرية نقدية حديثة؟ أو بمعنى آخر هل هناك نقد عربيّ حديث؟

والواضح أنه لا يمكن الإحاطة بأهم معالم المرحلة النقدية المعاصرة بإنجازاتها دون العودة إلى المؤثر الغربي باعتباره أهم العوامل المؤثرة في تكوين الخطاب النقدي العربي.

3. الخطاب النقدي الجديد وروافده الفكرية:

أ- الرافد الغربي:

انّ ما تتسم به النظرية النقدية الحديثة هو أنها تخلصت من تلك المعضلة الأفلاطونية وخلصت الأدب من إسارها، والأهم من ذلك أنها حررته من أسر مجموعة المصادرات الإنسانية والمعرفية التي أهدرت حق قطاعات إنسانية كبيرة في التعبير عن نفسها، وعلى وقع هذه المتغيرات والمستجدات انبثقت الحاجة إلى مراجعة أساليب الفكر السائدة ومجاوزتها، هكذا شهد الغرب إرهاصات تحول عميق في بنيته المعرفية ما لبث ان طال مناحي النقد الأدبي بوصفه مجالا معرفيا حيويا وباطلاعنا على مناهج النقد الأدبي نجد أن هذه المناهج استند كل منها على خلفية معرفية أو فلسفية أفاد منها، فبعضها استند إلى الفلسفة الاجتماعية، وبعضها أفاد من التاريخ وعلم النفس، ونتج عنها ما سمّي بالمناهج الخارجية، كالمنهج التاريخي والمنهج النفسي والمنهج الاجتماعي، وبعضها استند إلى علوم اللغة، كما فعل الشكلانيون الروس والنقاد الجدد فأبرزوا ما سمي بالمناهج الداخلية (الشكلانية الروسية والنقد الجديد). ويعد الشكلانيون أول من أسس قواعد المنطق المعرفي الجديد الذي بلورته النظرية الأدبية الحديثة، من مبدأ أن دراسة الأدب لا بد أن تتجه نحو الخصوصية والتجسيد، وأن تنأى قدر المستطاع عن الانتقائية غير المنهجية التي اتسم بها النقد السائد في عصرها ...وقد انطلقوا في هذا الرفض من مبدأ بسيط هو أن هدف الدراسة العلمية والمنهجية للأدب لابد أن يكون التعرف على الخصائص النوعية للأدب[4] ثم خلفهم في الدرس النقدي البنيويون في استنادهم إلى النموذج اللغوي السويسري، وكذلك فعل السيميائيون الذين عدّوا اللغة شفرة. ومنهم من حاول تحطيم النموذج المعرفي المستند إلى النموذج اللغوي كما فعل التفكيكيون، وبين هذه المناهج وتلك نجد من أهمل القارئ أو من حيّده، أو من أعاد له الاعتبار، كما فعل أصحاب نظريات التلقي[5]..

ب. الروافد التراثية:

استفاد النقد العربي المعاصر من قضايا التراث العربّي التي شغلت حيزا كبيرًا من الفكر العربيّ، بل والإنساني، "باعتبار أنّها نبضات حية من تاريخ مجموعة من الشعوب، كان لها مكان الريادة في فترة طويلة من الزمان، واستطاعت أن تحقق ألوانًا من التأثير الاجتماعي والسياسي والثقافي والديني على غيرها من الأفراد والجماعات والدول التي انبهرت بفكرها، وفلسفتها، وأدبها، وتاريخها"[6]، وقد حاول الناقد العربي المعاصر التعامل مع ثنائية (التراث والحداثة) وفق ما يعرف بالمثاقفة

المتزنة المحكومة بمنطق الاحترام والانتماء للتراث، وذلك باستخدام التقنيات والأساليب الحديثة في تحليل النصوص واستنباط المعاني والأفكار التي يحملها التراث العربي، كما لجأ الناقد العربي المعاصر إلى أدوات النقد الأدبي في قراءته وتحليله للتراث بشكل نقدي وموضوعي.

هكذا لم يكن بإمكان الدارسين العرب المعاصرين التغاضي عن الإنجازات الحضارية للغرب، حيث اجتهد العديد من النقاد العرب في محاولة احتواء المناهج الغربية، والإفادة منها.

4. المناهج النقدية الغربيّة في الدرس النقدي العربي:

تواجه الباحث أسئلة كثيرة حول الحداثة العربية، تتعلق بنشأتها، وتطورها، وعلاقتها بالمناهج الغربية المعاصرة من جهة، وبالموروث العربي من جهة أخرى، والواضح أنّ تأثير الشكل التراثي القديم لم يدم طويلا، فسرعان ما أدرك المثقفون والمفكرون، بتأثير الثقافة الغربية، أن الجديد الوافد يحتاج إلى شكل فني جديد أيضا، فتم التخلي عن الشكل التراثي، والتمسك بالشكل الغربي، وهكذا عاش الأدب العربي اغترابين، الاغتراب الأول انتجه التقليد الأعمى للمنجز الغربي؛ أما الاغتراب الثاني فكان بسبب اجترار وتكرار المباحث التراثية كما هي ونتيجة لذلك أدرك الدراسون العرب المعاصرون أن هناك حاجة ماسة إلى تجاوز المنهج التقليدي في النقد، الذي لم يعد بإمكانه مواكبة الحركة الإبداعية الجديدة ولهذا تأثر النقد العربي المعاصر بمضمون غربي للاتجاهات النقدية التي يستخدمها والتأثر بأعلامها الغربيين، تصريحا أو تلميحا، طغى عليها مقولات رينه ويلك و رولان بارث وجاكبسون ولوسيان غولدمان، وغيرهم يضاف إلى ذلك ما نقله النقاد العرب عن النقد العالمي تعريفا أو تأليفا.

وعلى هذا نستطيع أن نقول: إنّ ما نحتاج اليه إنّما هو تركيب ثقافي جديد ومعاصر يجمع ما بين المثل الإنسانية العظيمة المستمدة من تراثنا الحضاري العريق وبين العقلانية والروح النقدية والحقائق المستمدة من العلم والثقافة المعاصرين، وبذلك تنفتح السدود أمام الموهبة العربيّة المعاصرة[7]

---

[i] النظرية النقدية، هند حسين طه، دار الرشيد للنشر، العراق، 1981، ص16

[2] مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، دار افريقيا الشرق، بيروت، 2002، ص11

[3] ينظر: مناهج النقد المعاصر، صلاح فضل، دار افريقيا الشرق، بيروت، 2002، ص11

[4] أفق الخطاب النقدي، صبري حافظ، دار شرقيات للنشر، القاهرة، ط1، 1996 ص21

[5] المدخل الى مناهج النقد المعاصر، بسام قطوس، دار الوفاء للنشر، القاهرة ط1، 2006 ، ص15

[6] من قضايا التراث، دراسة نصية نقدية تحليلية مقارنة :فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف جلال حزي وشركاه، د.ط.د.ت. ص 07.

[7] مدارات وسجالات فكرية ونقدية، أحمد سامي عطفة، دار كنعان، دمشق، 2010م، ص137